

نظرات في المشروع الإصلاحي

للشيخ ابن باديس

في حوار مع الباحث الجزائري

عبد الرزاق قسوم*

أخي الطيبة: ما هي الظروف التي تحكمت في ولادة جمعية علماء المسلمين التي أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس؟

بداية، لو جاز لنا أن نستخدم مصطلحا لوصف الشيخ عبد الحميد بن باديس لقلنا: إن ابن باديس كان أمة؛ لأنه حمل - فعلا - هاجس الأمة بعقله وقلبه، ولذلك تغلغل في كل أوساط الأمة وحاول أن يقوم بإصلاح المجتمع إصلاحا تغييريا من الداخل. فإذا أخذنا، مثلا، تكوين جمعية العلماء فإن هذه الجمعية جاءت كرد فعل على الاحتلال؛ لأنها تأسست في مايو ١٩٣١ وكانت قد انقضت مئة سنة على الاحتلال. وبعد مرور مئة سنة أقامت فرنسا احتفالا ضخما حتى تبين للرأي العام أن الأمر قد استتب لها وأن الاحتلال أصبح واقعا، وأن الجزائر أصبحت جزءا لا يتجزأ من فرنسا. هذه المعطيات كانت الدافع الأساسي إلى تكوين جمعية تقول: الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا. بمعنى أنها سعت إلى إثبات عكس ما كانت تدعيه فرنسا من كون الجزائر جزءا من فرنسا.

أخي الطيبة: كيف تفسرون عدم اهتمام الجمعية - وعلى رأسها عبد الحميد بن باديس - بالعمل السياسي المباشر والمتمثل أساسا بالمطالبة الصريحة بالاستقلال منذ البداية؟

لم يكن بالإمكان في ذلك الوقت أن تكون جمعية العلماء - وهي

* أستاذ الفكر الإسلامي والفلسفة الإسلامية بجامعة الجزائر.
نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين.
رئيس تحرير جريدة «البصائر».

جمعية علماء- أن تطالب بالاستقلال؛ لأن هذا يجهض العمل الديني والعمل السياسي. فهي اختفت خلف ما يمكن وصفه بالعمل الديني، وقالت بأن جمعية العلماء لا علاقة لها بالسياسة ولا تشتغل بها. ولكن قمة السياسة هو ما فعلته جمعية العلماء عندما اهتمت أولاً بالناشئة وهم المستقبل للوطن؛ فكونت المدارس والمعاهد والجمعيات والشعب... وأيضاً اهتمت بالإصلاح الديني والإصلاح العقدي، وذلك بتخليص الدين من الجمود الذي كان يبيته بعض دعاة الزوايا في ذلك الوقت.. وأيضاً توعية الشعب الجزائري- كما قال ابن باديس في إحدى كلماته- بأن هذا الشعب ليس فرنسا ولا يمكن أن يكون فرنسا حتى لو شاء هذا الشعب أن يكون فرنسا! لأن هناك اختلافا في الطبيعة والمقومات والخصائص... وبالتالي نحن لسنا ولا يمكن أن نكون فرنسا.

مجلة الطبيعة: كيف تقيّمون تعامل ابن باديس مع الزوايا والطرق الصوفية، علما بأن هذه الأخيرة كانت تشكل جزءا أساسيا من بنية المجتمع الدينية والاجتماعية؟

في تعامل ابن باديس مع الزوايا كان تعامله ذكيا. قال في إحدى مقالاته: بيننا وبين هؤلاء (يقصد الصوفية والزوايا) أن يسحبوا أيديهم من الاستعمار الفرنسي وألا يتعاملوا مع العدو؛ فإذا فعلوا ذلك فهم إخواننا وستعاون بيننا.

من ناحية أخرى أعطى ابن باديس تعليمات أشار فيها إلى أن منطقة « القبائل»، والتي تسمى أيضا منطقة «زواوة»، كانت ولا تزال إلى الآن مستهدفة من المسيحيين، وكان عمل المبشرين المسيحيين مستفحلا إلى أبعد الحدود؛ فأعطى ابن باديس تعليماته بعدم مهاجمة الزوايا الصوفية في تلك المنطقة حتى ولو استمرت في جمودها؛ لأنها- في رأي ابن باديس- السد الذي نواجه به عملية التبشير التي يقوم بها آنذاك المسيحيون في منطقة «زواوة».

مجلة الطبيعة: تشير كتابات عديدة إلى مركزية الفئة الشبابية في عمل ابن باديس، في هذا الصدد كيف كانت الأساليب التربوية التي سلكها في مخاطبة هذه الفئة؟

للاقترب أكثر من الإجابة عن هذا السؤال أنكر هذا المثال؛ فمرة تم تنظيم « سيرك» فقال ابن باديس لأصحابه احجزوا لنا بعض التذاكر حتى ندخل لنتابع وقائع هذا «السيرك»... فتعجب أصحابه لقوله هذا!! وعندما دخلوا وشاهدوا الفصل المتعلق بالحيوانات قال لأصحابه هيا بنا نخرج. وقالوا له إن هناك فقرات أخرى خاصة بالأعمال البهلوانية! فقال لهم: لا.. يكفي ما شاهدناه. ولما خرجوا قال لهم: هل تعلمون لم جيئت بكم إلى هنا؟ قالوا:

لا!! قال: لأنكم أنتم معلمون، والمعلم غالبا ما يرمي تلاميذه بالغباء وعدم الفهم... فانظروا كيف سخر هذا المروض الحيوان حتى يمتثل لما يأمره به، وتحكم فيه بفضل التهذيب والترويض!! فلا أريد- يضيف ابن باديس- أن أسمع منكم منذ اليوم أحداً يقول: إن هذا التلميذ أو ذاك لا يفهم أو غبي... فتعلموا من هذه المشاهد دروسا في التربية والتعليم. فابن باديس كان معلماً عملياً.

أكثر من هذا، كان يهتم بالأنشطة الشبابية؛ فكون الجمعية الموسيقية للشباب، وأشرف أيضا على جمعية رياضية، وهي موجودة إلى الآن، وهي «مولودية قسنطينة» لكرة القدم... وكان كذلك هو المسؤول عن الكشافة؛ وكان هناك فريقان: الصباح والرجاء.. ووظف الرياضة- وكرة القدم خاصة- سياسيا. فيقول:

يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب

ف نجد ابن باديس هنا يستعمل أسماء فرق كروية للإشارة إلى مكانة الشباب عنده؛ فهم الرجاء والصباح الذي ينتظره المسلمون.

أحرر الطيبة: أين يتمثل الاتجاه التجديدي في حركة ابن باديس؟

مشروع جمعية العلماء كله هو مشروع تجديدي. طبعاً تجديدي بالنظر إلى ما كان عليه المجتمع في تلك الفترة؛ فمثلا جمود الزوايا كان ضاربا أطنا به داخل المجتمع وأغلب الناس كانت تؤمن بالخرافات... وكان لا بد من التصدي لهذا النوع من التحدي في إصلاح عقيدة المجتمع انطلاقاً من تجديدها.

ثم أيضاً اهتمامه بالمرأة التي كانت مهضومة الحقوق، فمثلا أول بعثة نسوية كانت ستتوجه إلى دمشق بعد اتفائه مع مديرة المعهد النسائي هي بعثة جمعية العلماء. ولكن للأسف الشديد توفي ولم يحقق هذه الأمنية. لكن النية كانت موجودة لبعث هذا الوفد النسائي من أجل أن تكون النساء في مستوى ما ينتظرهن من أعمال.

فلا نكاد نجد مجالاً من مجالات الحياة سواء كان اقتصادياً أو اجتماعياً أو غيره، أو فئة من فئات المجتمع من أطفال وشباب وشيوخ وكهول، وكل أصناف المهن الموسيقية والرياضية... إلا ووجدنا فيها مساهمة متميزة ومشاركة واضحة لابن باديس في مثل هذه الأعمال.

أحرر الطيبة: هناك من يشير إلى أن ابن باديس كان غارقاً في قطريته، ولم يلتفت إلى ما حوله من أجل تصدير أفكاره ورؤاه والاهتمام بمن حوله!؟

هذا ليس صحيحاً . فابن باديس لم يكتف بالعمل داخل الوطن ، بل كان يمد يده إلى باقي المصلحين في أنحاء العالم الإسلامي ؛ فكان معجبا بعمل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والزيتونة بتونس . وكان يتعامل مع المصلحين بالمغرب . كما عمل على مد جسور التعاون مع كل المصلحين ؛ لأننا أمة واحدة كما كان يردد دائما .

أكثر من هذا ، كان يجسد الأعياد الوطنية بالنسبة للتلاميذ والطلبة .. فمثلا كان يحتفل بعيد المولد النبوي وبغزوة بدر بفتح مكة ... وكان ١٧ رمضان (غزوة بدر) يوم عطلة عند جمعية علماء المسلمين ، الأمر الذي لم يحدث في أي مكان آخر ؛ لأنه بعمله هذا يدخل هذه التواريخ والأحداث الإسلامية في عقول الناشئة ، وحتى يعلم الناس أن هذه هي أعيادهم الحقيقية لا الأعياد الأخرى التي عملت فرنسا على ترسيخها في المجتمع كعيد « الفصح » و«نويل» (عيد ميلاد المسيح) . وبإحياء هذه الأعياد رسخ بعد الأمة الإسلامية في نفوس الجزائريين .

وهذا أيضاً مخالف للنزعة السلفية التي تقول ببذعية الاحتفال بعيد المولد النبوي . فابن باديس على العكس كان يفتنم مثل هذه الفرص بإحيائها بالأناشيد والأمداح والمحاضرات ...

الحياة هل الحركة الإصلاحية التي قادها ابن باديس كانت ذات طابع مؤسسي ؛ أي لا تعتمد على عقلية الشخص - الفرد ، أم أنها جهد جماعي منظم ؟

- للأمانة يجب أن نقول : إن ابن باديس لم يكن وحده في هذا العمل ، فقد كان حوله مجموعة من العلماء الذين آمنوا بقضيته وعبأوا أنفسهم للعمل معه . في العاصمة كان الشيخ «الطيب العقبي» وفي تلمسان الشيخ «البشير الإبراهيمي» ، وابن باديس كان في قسنطينة ... وينسق بين كل هذه الاتجاهات حتى يضمن التحرك الشمولي على مستوى الأمة .

وأيضاً اهتم ابن باديس بالجنوب ، وكما حكاي أحد تلاميذه وهو الشيخ «محمد خير الدين» أن ابن باديس بعث به إلى الجنوب الذي كان منطقة عسكرية معزولة لتوعية الناس من خلال تكوين المدارس ... فأنا ابن الجنوب تكونت داخل جمعية العلماء . فكنت في الخامسة صباحاً أبدأ بالقرآن الكريم (أي بعد صلاة الصبح) وعند الساعة الثامنة ألتحق بالمدرسة الفرنسية لتعلم فيها ، وفي المساء أذهب إلى المدرسة العربية لتعلم فيها ...

أبي الطيب: كيف كان منهج ابن باديس في التعامل مع تلاميذه؟

أولا تجب الإشارة إلى أن المجالات التي نشط فيها عبد الحميد ابن باديس وجمعية العلماء كثيرة... ولكن ما ينبغي الإشارة إليه هو أنه كان عمليا في عمله، واستخدم المنهج التطبيقي الإصلاحي. فمثلا، عندما كان يستقبل تلاميذه يسألهم أولا عن المنطقة التي جاءوا منها. وحكا لنا أحد تلاميذه أنه كان مع كل بداية سنة يسألهم ابن باديس: من منكم أدى الخدمة العسكرية عند فرنسا؟ فيعزل الذين أدوها عن الآخرين. ويتوجه لمن أدى الخدمة العسكرية بقوله: لقد تعلمت استخدام السلاح وعليكم أن تحافظوا على هذا الاستخدام، فسنحتاج إليكم في يوم من الأيام. وهذا يندرج ضمن إعداد الشعب لخوض المعركة ضد فرنسا. لكن ابن باديس رغم كل هذا لم يقدم نفسه للشعب كسياسي بل كان يعمل في الأعماق. ومن الالتفاتات التربوية عند ابن باديس أنه عندما كان يغادر طلبته يودعهم واحدا واحدا.

وكانت حياته الشخصية بسيطة للغاية، وكان يميل للتقشف والزهد. فمرة طلب بعض الطعام الخفيف من الحليب والخبز، فأتى له أحد الناس بلحم مشوي (الشواء) فقال له: استعن به فأنت تبذل جهدا كبيرا. فقال له ابن باديس: هل تضمن لي أن طلابي جميعهم أكلوا هذا النوع من الأكل؟! فقال لا أستطيع أن أكل إلا ما يأكله طلبتي. فهذا تجسيد لقيمة الزهد في حياة ابن باديس. رغم أنه كان غنيا ووالده كان من الأثرياء.

أبي الطيب: هل يمكن اعتبار جمعية العلماء المسلمين بمثابة المرجع الفكري الذي تستند إليه مختلف الأطياف الإسلامية في الجزائر؟!

كل ما هو إسلامي الآن في الجزائر يستمد تعاليمه ومبادئه من مرجعية الإمام عبد الحميد بن باديس. وهذا بشهادة حتى الأحزاب الإسلامية التي تعتبر جمعية العلماء الينبوع الذي تستوحي منه مبادئها.. لكن هناك اختلاف، حيث تغلب الجانب السياسي على الجانب العقدي والثقافي وحتى الديني، بينما منهج عبد الحميد ابن باديس، وإن كان في عمقه وأبعاده العديدة سياسي، إلا أنه اعتمد على التغيير باسم الدين داخل المجتمع من الناحية الاقتصادية والاجتماعية... بمعنى توعية المجتمع بحقيقته كمجتمع مسلم وعربي، وبالعبادة - كذلك - بلغته... فإلى ابن باديس يعود الفضل؛ لأنه وضع الأسس الأولى للإصلاح باسم الدين.

وفي عمله التربوي كان عمليا واستراتيجيا.. يعلم الفقه والنحو والمواد اللغوية الجافة،

طول اليوم وفي الليل يعلمهم السيرة النبوية والتاريخ والجغرافيا.. فلما سئل عن هذا قال: عندما تنام الشياطين نستطيع نحن أن نتحدث عن كل ما هو وطني!! لأنه كان يعتقد أن الجواسيس يترقبون كل خطواته ويتجسسون عليه.

فالشيخ ابن باديس، وصحبه من بعده، كلهم مشوا على خطه.. وكل شيء يستغل لتحقيق هدف معين.. عندما كتب -مثلا- الشيخ «مبارك الميلي» كتابه تاريخ الجزائر أهدى نسخة لعبد الحميد ابن باديس، فكتب إليه قائلاً له: إذا كان من أحيى شخصاً واحداً فكأنما أحيى أمة فكيف نجازي من أحيى أمة بكاملها بكتابه تاريخ الجزائر!! ففي هذه الواقعة توعية للناس بالعناية بتاريخهم؛ لأن إحياء الأمة لا يمكن أن يكون إلا بهذا المسلك؛ لأن التاريخ - كما يقال - هو محيي الأمم، فإن سقيت هذا التاريخ بغير كأسها كان سماً قاتلاً لها!

إذا طبقنا العبارة التي نطلقها على إبراهيم عليه السلام كونه أبا الأنبياء، لجاز لنا أن نقول إن ابن باديس هو أبو المصلحين. فالظروف التي جاء فيها ابن باديس كانت صعبة للغاية؛ فالاستعمار كان ذا طابع استيعابي، ولم يكن حماية كما كان الشأن مع الاستعمار الفرنسي في المغرب وتونس.. فكانت فرنسا تعتقد أن الجزائر جزء من فرنسا، وبالتالي كانت اللغة مهددة، وحتى في بطاقات الهوية كان يكتب فيها للمواطن الجزائري: فرنسي مسلم! أي بمعنى أنه ليست عنده هوية مستقلة ولغة مقصية.

فليس من السهل أن يظهر في المجتمع من يتصدى لمثل هذه التحديات ذات الطابع الوجودي.. مثلما قامت به جمعية العلماء المسلمين؛ ولذلك كانت دعوة ابن باديس شاملة لكل مناحي الحياة.

الحكمة: كيف هي وضعية جمعية العلماء حالياً؟

بعد الاستقلال منعت الجمعية من العودة لعملها، وهذا كان عن قصد؛ لأنه كان هناك تغييب مقصود لفكرة جمعية علماء الجزائر. فمثلاً تولى «أحمد بن بلة» الحكم في الجزائر، ونحن نعلم خلافاته مع جمعية العلماء ومع الشيخ إبراهيمي. ثم جاء «هواري بومدين» وهو أيضاً حاربها؛ فهو لم يتعلم في جمعية العلماء إنما في الزاوية الكتانية، والزاوية الكتانية كانت - أيضاً - معادية لجمعية العلماء. فهذه الخلفيات انعكست سلباً على منع جمعية العلماء وتغييبها من العمل.

الآن عندما عادت جمعية العلماء إلى العمل منذ سنوات، احتضنها الشعب. ففي الجزائر هناك ٤٩ ولاية (محافظة) ففي ٤٠ ولاية تتوفر الجمعية على تمثيلية لها فيها بكل شعبها. وهذه عودة قوية للجمعية بشعبها المختلفة.

فجمعية العلماء المسلمين تتصدى الآن لكل ما من شأنه أن يمس بثوابت الأمة. فنحن - مثلا - تجنبنا عندما طرحت ما تسمى بـ «المنظومة التربوية للإصلاح» التي حاولوا أن يدخلوا فيها أشياء لا علاقة لنا بها.. مثل حذف المادة الإسلامية، وبعض الآيات القرآنية... تصدينا لهذه المساعي كلها. وكونا ما سميناه «التنسيقية الوطنية لإحياء المدرسة الجزائرية الأصيلة»؛ والأصيلة بمعنى أنها ليس هي التي تملى عليها قواعد الإصلاح. وكذلك «قانون الأسرة» الذي نص على إلغاء مسألة الولي في الزواج وتعدد الزوجات قلنا - كذلك - إن هذا مخالف لمبادئنا الإسلامية.. وتصدينا له عبر تنظيم تجمعات...

الطبية: لكن أليس مما يعاب على الحركات الإصلاحية الراهنة، والتي هي امتداد ربما طبيعي لسالفاتها، أن فعلها الإصلاحي يقتصر فقط على هدم ونقض ما يطرحه الطرف الآخر الذي لا يشاطرها نفس الرؤى والتصورات؟

مهمتنا تنحصر في بث الوعي في المجتمع. وننادي النواب والجمعيات المختلفة قصد الاجتماع بهم، ونكتب المقالات.. وبفضل كل هذه الجهود لاحظنا أن الدولة تلكأت في تقديم «قانون الأسرة» إلى الحكومة. والسبب راجع إلى تكاثر الأصوات ضده، وبالتالي لم يستطيعوا تحقيق ما يريدونه. ونحن نسعى إلى جمع مليون توقيع ضد هذا القانون. فعندما يقدمون إلغاء الولي استنادا إلى المذهب الحنفي، فنحن نبين حقيقة رأي أبي حنيفة، فلا يقتصر فعلنا على الهدم وإنما نقدم مقترحات بديلة. فكان تصحيحنا للمفاهيم المتعلقة بتعدد الزوجات ومسألة الولي...